21–نُفاضة الجراب، في عُلالة الاغتراب، لابن الخطيب. تحقق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. بدون تاريخ.
22–نَفْح الطيب، من غُصن الأندلس الرطيب، للمقرِّي (**1–10**). تحقيق الدكتورة مريم قاسم والدكتور يوسف طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، **1995**.

التنظيمات العسكرية في العراق إبان ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي 75–95هـ/694–714م.

الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه

تمثل حقبة ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق مرحلة مهمة جدًّا في تاريخه السياسي والعسكري، لأنها حقبة تميزت بتطورات متلاحقة لا سيما على صعيد التنظيم العسكري وتهيئة القوات اللازمة لمعالجة المشاكل التي رافقت هذه الحقبة من جهة ولتهيئة جيوش قادرة على مد رقعة الدولة إلى المشرق فقد كان العراق هو المركز الإداري المسؤول عن الحركات العسكرية في الجبهة الشرقية في العصر الأموي.

وكان الجهد العسكري في العراق ومنذ تحريره في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقع على عاتق القبائل العربية التي استقرت في القاعدتين اللتين أنشأتا فيه، وهما الكوفة والبصرة. وقد نُظمت البصرة والكوفة على أسس عشائرية، فكانت كل عشيرة وحدة يسكن أفرادها متقاربين في رقعة معينة من المدينة، تسمى باسم العشيرة[1]. ونتيجة لضعف الروابط القبلية فإن ظروف التنظيم العسكري للعرب بعد استقرارهم في هذه الأمصار الجديدة، أدت

إلى أن تصبح العشيرة هي الوحدة العسكرية الأولى[2]. وقد نظم الوالي زياد بن أبي سفيان العطاء لهؤلاء العشائر المقاتلة، التي كان واجبها الأساسي هو الخدمة في الجيش، لذا كان من الضروري أن تقدم كل عشيرة في حالة الحاجة عددًا من المحاربين المشاة والفرسان.

وقد قسم زياد بن أبي سفيان مدينة البصرة إلى خمس قبائل كبيرة، يسمى كل منها خمسًا[3] كذلك قسم الكوفة إلى أرباع[4]. ولا شك أن الغاية الأولى من هذه التقسيمات كانت عسكرية. وكان الأمير يُعين العرفاء من بين ذوي النفوذ في العشيرة. والراجح أن وظيفة العرافة وجدت في مصر في الأمصار من عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أعيد

*- أستاذ تاريخ الأندلس بكلية التربية- جامعة الموصل- جمهورية العراق.

تنظيم هذه الوظيفة في عهد زياد. وكان للعريف مهام كثيرة، منها: أنه المسؤول عن تقسيم العطاء بين قومه، كما كان له علاقة قوية مع أفراد عرافته، أو قد يتولى عنهم، أو يتوكل بأرزاقهم إذا خرجوا لأمر أو سافروا. وكان العرفاء مسؤولين عن جمع الجند عند النفير، كما كانوا مسؤولين عن جمع البراءات بموافاتهم إلى مراكز البعوث التي ينتمون إليها[5].

استمرت هذه التنظيمات تعمل بشكل جيد طيلة مدة ولاية زياد بن أبي سفيان، وإلى حد ما في ولاية ابنه عبيد الله بن زياد، ولكن بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية (**60-64**/ **680-683**) اضطربت أحوال العراق، لاسيما بعد استفحال خطر الخوارج في المناطق المجاورة للبصرة. فلقد واجه العراق، ظروفا صعبة في السنوات القلائل التي سبقت ولاية الحجاج بن يوسف، حيث تتابعت فيه الفتن والحركات المتلاحقة التي راح سببها الكثير من الضحايا، إضافة إلى ما سببته من هياج في المشاعر وغليان سياسي، استمر حتى عهد عبد الملك بن مروان (**65-86**/ **685-750**)، الذي عين ولاة متعددين على العراق لتثبيت السلطة الأموية فيه، ومكافحة خطر الخوارج، الذين تجمعوا في الأحواز. وقد حاول أخو الخليفة، ووالي العراق بشر بن مروان أن يحارب هؤلاء الخوارج، فأرسل إليهم القائد المهلب بن أبي صفرة من البصرة، وأنجده بجيش آخر من الكوفة، لكن بشر توفي، قبل أن تنجز هذه المهمة، الأمر الذي أدى إلى تفرق جند المهلب، ورجوعهم إلى أمصارهم، عصاة مخالفين.

وكانت مشكلة الفارين من القتال من أهم المشاكل التي تواجه السلطة الأموية، لهذا كان على الخليفة عبد الملك أن يختار لها رجلاً كفوءًا يستطيع أن يعيد تنظيم الجيش العراقي، وأن يثبت الحكم الأموي فيه. وعندما وصل الحجاج إلى الكوفة، خطب فيها خطبة، أكد فيها المشاكل الآنية التي يجب حلها بسرعة، وهدد بالقتل كل من وجد متخلفًا عن جيش المهلب بن أبي صفرة بعد ثلاثة أيام، وذلك بقوله: "...وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم إلى أمصاركم عصاة متخلفين، وأقسم بالله لا أجد أحد بعد ثلاثة ممن أخل بمركزه إلا ضربت عنقه"[6].

ومن الجدير بالذكر أننا تطرقنا إلى هذا الأمر، لأهميته في كيفية تعامل الحجاج مع التنظيم السابق للجيش والمقاتلة، وما هي الأساليب الجديدة التي أدخلها على هذا التنظيم، لضمان سرعة تجنيد القوات العسكرية والتحاقها بجبهات القتال، دون تأخير. واتخاذ إجراءات قاسية في هذا المجال، لردع المخالفين والمتخاذلين. وتنظيدًا لما قاله، فقد طلب من رئيس شرطته، أن يقتل من وجده عاصيًا بعد ثلاثة أيام، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب، حتى يسترجع كل رجل تفرق عنه سابقًا[7]. وفعلا نفذ الإعدام بأحد المتخلفين، وهو عمير بن ضابئ البرجمي ونتيجة لذلك، فقد خاف العصاة والتحقوا بجيش المهلب، وتزاحموا على عبور الجسر. حتى غرق بعضهم، مما جعل الحجاج يأمر بإقامة جسر آخر على الفرات لاستيعاب الفارين الذين رجعوا، والتحقوا على وجه السرعة طالبين إلى أهاليهم أن يزودوهم بمتاعهم وزادهم فيما بعد[9]

لــقد كان للحجاج بن يوسف الثقفي طريقته الخاصة في التعامل مع العصاة الفارين من القتال، ولم يكن ير أي مبرر لعدم التحاق الجنود بجيشهم، فكان يقول: "إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قوتل عدو، ولا جبي فيء، ولا عزّ دين، ولم يغز المسلمون المشركون لغزاهم المشركون"[10]. والواقع أن الحجاج كان محقا في قوله هذا، وفي معاملته للجنود الفارين. لأن منح الدولة للعطاء للمقاتلة يخولها قانونًا حق فرض البعث[11] عليهم، وإلزامهم الاشتراك في القتال[12]. وكان الولاة قبل الحجاج، يستخدمون الضرب والحبس، وحلق اللحى والرؤوس، بالنسبة للعصاة الفارين من الالتحاق بالجيش، وزاد بشر بن أبي مروان بتعليق كفي العاصي بمسمار إلى الحائط، وتركه إلى أن يموت. ولكن الأمور اختلفت كثيرًا بمجيء الحجاج إلى العراق، الذي عيّن أصلاُ للقضاء على هذه المشكلة. لهذا فقد رأى أن ما فعله الولاة السابقون بالعصاة لم يكن ردعًا لهم، وهو لايرى إلا السيف حلاً لهذه المشكلة[13]. ولكن الحجاج لم

يشترط في استخدام هذه العقوبة، صحيح أنه هدد بها، وقتل بموجبها فعلاً، عمير بن ضابئ البرجمي في الكوفة، وشريك بن عمرو اليشكري في البصرة[14]، إلا أنه أخذ فيما بعد "يتفقد العصاة ويوجه الرجال، فكان يحسبهم نهارًا ويفتح الحبس ليلاً، فيتسلـــل الناس إلى ناحية الملهب، وكأن الحجاج لا يعلم[15] وبطبيعة الحال، كان هذا هو الهدف، أي التحاق المقاتلين بجيشهم، ولم يكن الهدف هو العقاب وقتل هؤلاء المخالفين.

ويعتبر البعض أن الحجاج بطريقته هذه يعد أول من أدخل التجنيد الإلزامي في العراق[16]، وربما كان هذا الأمر صحيحًا إلى حد ما، صحيح أن فرض البعوث، وتجنيد الجنود، وما يتعلق بها من أنظمة والتزامات، كل ذلك كان موجودًا أو معروفًا قبل الحجاج. ولكن هذا الوالي طبق هذه الأنظمة بصورة حازمة الأمر الذي جعله يبرز في هذا الميدان. فقد كان لايسمح لأحد مـــن النـــاس أن يتخلف عن البعث، إلا أن يكون مشغولاً بعمل من أعمال الخليفة[17]. يضاف إلى ذلك أنه كان يجند المحتلمين والبالغين من الصبيان، ويفرض عليهم البعث عند اللزوم[18]. كما كان يسمح لولاته في أخذ من شاءوا من أهل الأمصار، لتجهيزهم وإرسالهم للفتوحات في المشرق[19].

وفي مجال إعادة تنظيم ديوان الجند، قام الحجاج بن يوسف بإجراءات منها، تبديل كافة العرفاء السابقين، وذلك استنادًا على أمر الخليفة عبد الملك بن مروان له، بأن يعرض الناس، ويعيد تنظيم عطائهم حسب الكفاءة والمقدرة[20]. فلما عُرض عليه العرفاء، أبدى عدم اقتناعه في مقدرتهم على القيام بمهامهم على الوجه الصحيح، لذلك أمر بإقالتهم جميعًا. وقد سبقت الإشارة إلى أهمية هؤلاء العرفاء، ومسؤوليتهم عن جمع الجند عند النفير، وغيرها من المهام ذات العلاقة بالحكومة. ويبدو أن هؤلاء العرفاء كان بمقدورهم استغلال نفوذهم في تعجيل تنفيذ الزيادة في العطاء، أو تأخيرها، كما كان بمقدورهم أيضًا ألاَّ يخبروا عن حالات الوفاة في عرافاتهم، ويستمروا في دفع عطاء الموتى لأهاليهم[21]. وبما أنهم كانوا حلقة الوصل بين الناس والحكومة، فيما يخص توزيع العطاء، وجمع الجند، ومراقبة المشاغبين والمتمردين، للسيطرة على المجتمع، فلا بد أن يكونوا بمستوى هذه المسؤولية، ليرضى عنهم الأمير.

ونظرًا للفوضى التي كانت سائدة قبل مجيء الحجاج إلى العراق، والتي يشك أن لتقاعس هؤلاء العرفاء يد فيها، وفي استفحالها، بعدم الإبلاغ عن الجند الفارين، أو غيرها من

المخالفات التي تعيق الجهد العسكري للقضاء على الحركات المعادية للدولة، كحركة الخوارج مثلاً. لهذا كان من الضروري للوالي الجديد، أن يستبدل كل هؤلاء بغيرهم ممن يمكنه أن يعتمد عليهم جمع الحجاج القبائل[22]، واختار منهم من رآه لائقًا للعمل عريفًا، أو منكبًا[23]، على القبائل. وكان من جملة الأمور التي يجب أن تتوفر فيمن يُختار لهذه الوظيفة، هي: أن يحسن المرشح قراءة القرآن الكريم، وأن يكون له معرفة باللغة العربية، والشعر، والحساب، والفرائض، ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم[24].

لقد انعكست سياسة الحجاج الفعالة في القضاء على مشكلة العصاة الفارين، وكذلك سيطرته على العرفاء والمناكب، بواسطة استبدالهم بعناصر كفوءة يركن إليها في ضبط الاتصال مع القبائل العربية المختلفة المنضوية ضمن الجند في العراق. انعكست هذه السياسة على نتائج إيجابية في مسألة إعداد المقاتلين، فقد استطاع هذا الوالي في سنة 77هـ/ 696م، أن يجند لقتال الخوارج من الكوفة وحدها نحو خمسين ألف مقاتل، عشرة آلاف منهم من الشباب، ولم يسمح لأي رجل من قريش أو من بيوتات العرب أن يختلف عن ذلك[25]. وبلغ عدد الجيش الذي كان تحت قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي في خُراسان نحو أربع وخمسين ألف مقاتل. كما استطاع الحجاج في سنة 81هـ/700م، أن يجهز جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل من مقاتلة البصرة والكوفة، وسيره إلى سجستان لقتال الترك بقيادة عبد الرحمن بن محمد الأشعث، وجهز الجند بكل ما يحتاجونه من سلاح وعدة كاملة، وزودهم بالخيول الروائع، حتى سمي ذلك الجيش بجيش الطواسي لتكامل عدة رجاله، وشجاعة أفراده، وحسن هيئتهم[26].

وكان الاهتمام كبيرًا بأعداد المقاتلين، كمًا ونوعًا. فقد كان الحجاج حريصًا على التنظيم الكامل لجنوده في العراق، فكان لا يخلط خيل الشام مع خيل العراق[27]. كما كان يهتم بتفتيش الجند ومحاسبتهم على السلاح والقيافة الكاملة. لذلك كان يكثر من استعراض الجند بنفسه، لا سيما قبل إرسالهم إلى القتال، فيسأل عن رجل رجل ويتعرف إلى هواياهم، فمن رضي به أقره في بعثه[28]. وكان يرفض كسوة الجندي وفرسه، إذا رآهما لا يتفقان مع ما يأخذه من عطاء كثير[29]. وإذا ما رأى مخالفًا، أو رجلاً لا سلاح عليه، كان لا يتهاون معه، ويعاقبه بالضرب بالسوط. وكان يشتد في معاملة جنوده، حتى أنه حاسب أحدهم عن الخيول التي عقرت تحته أثناء القتال، في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، فاحتسبها من عطائه.[30]

وكان عطاء المقاتلين يصرف من بيت المال، حسب ضوابط تم وصفها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بالنسبة للمسجلين في ديوان الجند. وكان في العراق ديوانين للجند في كل من الكوفة والبصرة، وقد تطور نظام العطاء في العصر الأموي، فلم تعد المقاييس التي وصفها الخليفة عمر، مثل السبق في الإسلام، والفناء عن الإسلام والحاجة، هي التي تقرر فرض العطاء، إنما الذي أصبح يقرر ذلك هو الولاة للدولة، والخدمة في قواتها ومؤسساتها. وكان الحد الأعلى من العطاء، يدعى شرف العطاء، محددًا بألفين وخمسمائة درهم في السنة، ثم انقض في عهد معاوية بن أبي سفيان (41-60/ 660-680) إلى ألفي درهم. وكان هذا العطاء لا يعطى إلا لمن أبدى بسالة في الحروب، أو من كان يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية. أما أغلبية المقاتلة فقد كان عطاؤها أصناف: مأتي درهم، وثلاثمئة، وأربعمائة، وخمسمائة، وسبعمائة، وألفًا، وألفًا وخمسمائة درهم. وهذا التصنيف لم يكن حسب قبائل هؤلاء الجند، بل على أساس ما يبدونه من بسالة في المعارك، أو ما يجهزون به أنفسهم، فيأخذ الفارس مثلاً عطاءً أكبر مما يأخذه الرجل[32]. ولا توجد إشارة إلى عدد الرجال في كل صنف في العصر الأموي، أو في عهد الحجاج في العراق بشكل خاص، لكن وكما يقول صالح العلي، كان "من يأخذون أدنى العطاء، أكثر مما يأخذون أعلاه، كما أنه هناك مجال للترقية من صنف إلى آخر"[33].

ويتضح في النص الذي ذكره أبو عبيدة بن معمر بن المثنى التميمي[34]، إن العطاء الذي كان يفرضه الحجاج بن يوسف لغالبية الجند في العراق هو ثلاثمئة درهم، فهو يقول: "كان الحجاج يفر في ثلاثمائة ففرض للحرنفش أحد بني سلامان، وكان يأخذ ممن فرض له بفرسٍ جوادٍ وسلاحٍ شاكٍ، فقال الحرنفش:

"يكلفني الحجاج درعًا ومغفرًا وطـــرفًا كميتًا رائعًا بثـــلاث
وستين سهمًا صنعه يثربـــيه وقوسًا طروح النبل غير لباث
ففي أي هذا أجعلن دراهمـــي فربي مـــن هذا الحديث غياثي"

ويبدو من هذه الأبيات التي تعبر عن استياء هذا الجندي من قلة مبلغ العطاء، أن الحجاج كان يطلب نظيره، أن تكون عدة الجندي كاملة. لهذا كان الجندي يشكو من صعوبة التوفيق بين هذا العطاء، وبين ما يطلبه الحجاج من عدة وسلاح. لكنه كان يزيد من عطاء

الجندي إذا ما أبلى في الحرب[35]. وكان في بعض الأحيان يوزع على قادته وجنده، مبالغ أخرى، لا تدخل ضمن العطاء، من باب المكافأة والتشجيع. فعلى سبيل المثال، تشير المصادر إلى قيامه بتوزيع مبلغٍ كبيرٍ جدًا على جيشه، بعد انتهاء معركة تستر أمام ابن الشعث سنة (**81**هـ/**700**م)[36]. ومن المحتمل أن يندرج ضمن هذا الأمر أيضًا، إعطائه مبلغ مئة درهم في الشهر لجنوده الذين كانوا يحاربون ابن الشعث في سجستان. فتشير إحدى روايات الطبري[37]، إلى أن الحجاج كتب إلى ملك الترك الذي التجأ عنده ابن الشعث: "أما بعد فإنني بعثت إليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفًا من أهل الشام لم يخالفوا طاعة و لم يخالفوا خليفة ولم يتبعوا أمام ضلالة يجري على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطعامًا يطلبون ابن الأشعث". وإن صح هذا النص، فهو يعني أن هؤلاء الجند كانوا يأخذون ما يقارب أربعة أضعاف الجند الاعتياديين. وربما كان ذلك لأنهم خرجوا في مهمة خاصة، أو إن هذا المقدار من العطاء الذي ذكره الحجاج كما يرى خالد الجنابي –كان عطاءً وقتيًا وإن الغرض من ذلك كان سياسيًا أو قصد منه التهديد[38]. ولم تختلف صنوف الجيش وأسلحته عمّا كان معروفًا من عصر الراشدين، والعصر الأموي، فالقوات العربية في الجيش في العراق إبان عصر الحجاج كانت تتألف من الخيالة، والرجالة، والرماة أو النشابين، وغيرهم من المنجنقيين والفعلة، والأفراد الذين يقومون بالخدمات، مثل الإشراف على النقل والتمرين والطبابة، وغيرها. فضلا عن العيون والجواسيس. أما الأسلحة، فكانت تنقسم إلى قسمين وهي الأسلحة الخفيفة، والأسلحة الثقيلة. وقد مر بنا كيف أن الحجاج كان يطلب من الجندي، أن يجهز نفسه بالأسلحة الخفيفة، نظير أخذه للعطاء. أما الأسلحة الثقيلة، لاسيما تلك التي استخدمت في الحصار، ومقاتلة الأعداء في جبهة المشرق، فكانت تتألف في الغالب من المنجنيقيات والدبابات والكبوش، أو غيرها. وليس هنا مجال لأشرح المعلومات النظرية عن هذه الأسلحة، ويمكن الرجوع إلى الدراسات المختصة في ذلك[39]. ولكن الذي يمكن قوله بأن انتصارات العرب المتوالية في العصر الأموي أدت إلى وقوع أعداد هائلة من السلاح بين أيديهم، لاسيما في العراق. وكان هذا السلاح عادة يوزع على المحاربين في أثناء القتال، ويرسل الباقي إلى قواعد الجيش الرئيسية في الكوفة والبصرة.

ففي الجبهة الشرقية على سبيل المثال، أصحاب قتيبة بن مسلم الباهلي في خزائن بيكند، وهي بلدة بين بخارى ونهر جيحون[40]. سلاحا كثيرا قسّمه بين المقاتلين[41].

أما بالنسبة للتعبئة وأساليب القتال، فقد سارت في العصر الأموي، وفي العراق على عهد الحجاج خاصة، كما كانت عليه بشكل عام في الدولة العربية الإسلامية. وهي بالتأكيد قد تطورت عن الأساليب السابقة في الكَرّ والفَرّ، إلى القتال حسب نظام الزحف أو الصفوف. وقد يرع الجيش في العراق في ممارسة مختلف أساليب القتال، لاسيما وأنه واجه القضاء على حركات داخلية كثيرة، مثل حركات الخوارج. كما تصدى للفتوحات في الجهة الشرقية، الأمر الذي دفعه إلى استحداث أساليب تعبدية جديدة، تعتمد على الخفة وسرعة الحركة، والمفاجأة. وسنكتفي بضرب بعض الأمثلة على هذه الأساليب متجنبين الحديث عن الأساليب التعبوية في القتال بشكل عام، وما كان عليه ذلك في العصر الأموي، خشية التكرار[42].

لقد كان قادة العراق مثالاً جيدًا للاستعداد للحرب، والحذر في قيادة الجيوش حفظًا على سلامة الجند. وكانت حروب الخوارج بشكل خاص تتطلب مثل هذه الحيطة وذلك الحذر. وكان الملهب بن أبي صفرة، شديد الاحتياط والحذر في جميع حركاته العسكرية لا ينزل إلا ويخندق على جيشه، ويتولى الحراسة بنفسه، أو يستعين بأبنائه، أو من يثق بهم من أصحابه، ولحرصه الشديد كان يأمرهم بالتحرز ويخوفهم من البيات، أي مهاجمة العدو ليلاً، كما كان يحذرهم من المكيدة، وخداع الأعداء[43]. وهكذا لم يجد منه الخوارج أية غرة أو غفلة. كما برع قادة جيش العراق في عهد الحجاج بن يوسف في استخدام الكمائن، للانقضاض على الأعداء، لاسيما في الجهة الشرقية. وتعد معركة سمرقند سنة **93**هـ/ **711**م أبرز مثال على ذلك، حيث استخدم فيها أسلوب الكمين مما أدى إلى إضعاف معنويات الأعداء، وطلبهم للصلح مع المسلمين[44].

وتتجلى أساليب القتال التي اتبعتها القوات العراقية في عهد الحجاج في اقتحام المدن والحصون. ويمكن أن نشير إلى فتح مدينة بخارى على يد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة **90**هـ/ **708**م في هذا المجال. وهذا المثال يشيد، إضافة إلى عزم وإصرار المسلمين على تحرير هذه المدينة، إلى دور الحجاج كقائد عام للجيش، ومساهمته في اتخاذ القرار بشأن الأسلوب الأمثل للقتال، وكيفية الاستيلاء على المدينة. فعندما طال حصار المسلمين لهذه المدينة كتب قتيبة إلى

الحجاج يستشيره في ذلك، فطلب منه أن يصورها، فبعث إليه قتيبة بمخطط للمدينة يصور موقعها، فنصحه بأن يتقدم إليها من أماكن معينة، وحذره من الجبال ومنعطفات الطرق، وأن يأتيها من جهات معينة حددها له، الأمر الذي ساعد على افتتاحها[45].

ومن التنظيمات الأساسية التي تذكر في عهد الحجاج بن يوسف في العراق، هي بناء مدينة واسط في حدود سنة 83 أو84هـ/ 702 أو703م). ويرى بعض المؤرخين أنها بنيت لتكون مقر لجند أهل الشام المجودين في العراق، ولمنع ما قد يحصل من اعتداءاتهم على سكان المدن الأخرى[46]. والحقيقة إن فكرة إقامة جند الشام في مدينة خاصة، لم تكن هي المبرر الوحيد لبناء المدينة، فهناك أسباب إدارية وعسكرية وإصلاحية، أكثر أهمية من ذلك مثلاً جعل هذه المدينة لتوسطها بين الكوفة والبصرة، مركزًا لإدارة العمليات العسكرية في المشرق وقاعدة لانطلاق جيوش العراق منها. ولم يكن السكن فيها مقتصرًا على جند الشام، بل كان يشمل كل العرب، ولا يجوز لغيرهم لاسيما النبط السكن أو المبيت فيها[47]. إن موقع هذه المدينة المتوسط بين مدن العراق جعلها حصنًا في منتصف الطريق، كما أن موقعها المناسب في سهل مروي جيدا، بين دجـــلة والفـــرات، جعلها مركزًا سوقيًا عسكريًا للدولة العربية الإسلامية[48].

ومن هذه المدينة فعلاً انطلقت جيوش العراق الإسلامية لتحقق انتصارات عظيمة في جبهة المشرق. وكان للحجاج بصفته القائد الأعلى لهذه الجيوش، دورٌ كبيرٌ في تحمل مسؤولية العمليات العسكرية التي امتدت إلى حدود الصين والهند وآسيا الوسطى.

إن تعاون الحجاج التام بينه وبين قادته، يظهر مدى تأثيره الشخصي على سير هذه العمليات، ويذكر الأستاذ هاملتون كب (A. H. R. Gibb)[49] بأن إنجازات الجيوش الإسلامية في أواسط آسيا خلال حكم الوليد الأول (86-96/ 705-715) وكانت تعزى بالدرجة الأولى إلى التعاون التام بين نبوغ الحجاج الموجه، وبين قدرة قتيبة بن مسلم الحربية. ويمكن أن نظيف عامل التنظيم والخبرة، اللتين امتاز بهما الحجاج، في تجهيز الجيوش وتسييرها، كعوامل أُخرى ساعدت على نجاح العمليات العسكرية لجيوش العراق في المشرق. فعلى سبيل المثال، جهز الحجاج جيش محمد بن القاسم الثقفي بكل ما يحتاج إليه من لوازم، حتى البسيطة منها، إضافة إلى أنه نظم إرسال الحملة، بأن جعلها قسمين، برية وبحرية، وحرص

على أن تصل الحملتان في وقت واحد إلى الديبل في أرض السند (موقع لمدينة كراجي في الباكستان الحالية)[50]. وكانت الاتصالات مستمرة بين القيادة العامة في واسط، والقادة الميدانيون، يطلع فيها القائد العام على كل صغيرة وكبيرة، تهم الجيش المتواجد في ميدان القتال. فكانت كتب القائد محمد بن القاسم، ترد على الحجاج وكتب الأخير ترد عليه كل ثلاثة أيام. وكثيرًا ما كان الحجاج يبدي توجيهاته في طريقة الفتح أو القتال، ويحاول أن يذلل العقبات التي تعترض سير الحملات، بعد اطلاعه على الوصف التفصيلي لأرض المعركة[51].

إن تنظيم الجيش في العراق في هذه الحقبة، وإنجازاته الكبيرة على الصعيد المحلي، بالقضاء على الفتن والحركات المناوئة للدولة، وكذلك تحقيق التوسع في الجبهات الخارجية، يعود كما أسلفنا، بشكل موجز، إلى فضل القيادة الرشيدة، والتعاون التام بينها وبين الميدانيين، وقد توخى الأمويون بشكل عام، والحجاج بشكل خاص في قادتهم ذات الصفات التي كانت مطلوبة في عهد الراشدين، فكانوا يتحرون من لــه القابلية على تحمل المسؤولية، ويتصف بالحزم، ورسوخ العقيدة والثقة بالنفس. إن أبرز القادة الذين عملوا في الجبهة الشرقية التي كانت تتبع العراق من الناحية الإدارية في عهد الحجاج، هم المهلب بن أبي صفرة، ومحمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي. وكانت هذه المناطق تشمل الأحواز، وفارس، وكرمان، والهند، والسند، وسجستان، وطبرستان، وجرجان وخرسان[52].

ولن نطيل في الحديث عن هؤلاء القادة، ولكن لابد من الإشارة إلى أهم إنجازاتهم على صعيد القتال في هذه الحقبة. فقد كان للمهلب بن أبي صفرة (ت 82هـ/701م)، فضل كبير في إنقاذ البصرة من الخوارج الذين كانوا يهاجمونها باستمرار. وقد ازدادت معنويات هذا القائد بوصول إمدادت جديدة إليه بعد تعيين الحجاج على العراق، فأجلا الخوارج من الأحواز إلى فارس، ثم لاحقهم إلى كرمان، وتمكن من القضاء عليهم نهائيًا[53]. وقد أشرنا في ما سبق إلى بعض قابليات هذا القائد الذي كان أعداءه يعترفون بقابليته العسكرية ويخشونها. ومن صفاته القيادية الأخرى، حسن معاملته لجنوده، حسب نفسياتهم وأطباعهم وأهوائهم. وكان يوزع خراج المناطق الواقعة تحت سيطرته عليهم[54]. وقد طور المهلب في بعض أدوات الحرب المستعملة في زمانه نتيجة لخبرته الطويلة في القتال، فبدل ركاب الخيل الخشبية، وأمر بضربها من الحديد، حيث كانت الأولى سريعة العطب، فتنقطع، ويبقى الفارس يقاتل دون أن يكون

مستندًا على أساس قوي تحت رجليه[55]. ومن القادة المتميزين في العراق، محمد بن القاسم الثقفي، الذي كان والده عاملاً على مدينة البصرة. وقد ساهم مع الحجاج في فترة مبكرة في مقابلة عبد الرحمن بن الأشعث، الذي أعلن العصيان على الدولة. وقد نال إعجاب الحجاج لشجاعته، وحسن إدارته، فأسند إليه سنة 89/ 707-708 قيادة حملة مهمة إلى السند، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فقاد الحملة البرية التي رافقتها سفن الأسطول البحري، واستطاع أن يحقق من الانتصارات في هذه الجبهة ما عجز عنها غيره من القادة الكبار فقد خندق أمام مدينة الديبل (كراجي) ونصب منجنيقًا كبيرًا يقال له العروس، يعمل به وقت الرمي خمسمئة رجل، ثم ابتدأ حصار المدينة، التي استمر فيها القتال ثلاثة أيام، ثم بنى فيها مسجدًا، واختار أربعة آلاف من جنده، وأسكنهم فيها، ليكونوا دعاة لنشر الإسلام واللغة العربية[56]، وهكذا أعاد الأمن والاستقرار إلى تلك المنطقة، حيث لا تزال هذه البلاد تنعم بفضل القائد العظيم، الذي كان السبب في هداية الملايين من أبنائها إلى الإسلام.

وأخيرًا لابد من الإشارة إلى القائد أبي حفص قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولد ونشأ في العراق، واستشهد بخراسان سنة 86هـ/ 715م. وقد برزت مواهبه العسكرية حينما وقف مع الحجاج في قتاله لأحد المتمردين في البصرة، ثم بانت مواهبه العسكرية في قتال الخوارج، ثم في ولايته على الري شمال إيران، ومن بعدها ولاية خراسان. وقد اتخذ من مدينة مرو قاعدة عسكرية له، ثم انطلق منها إلى بلاد ما وراء النهر، وهي الأقطار الكائنة شرق نهر جيحون المسمى الآن بـ(أموداريا)، وافتتح أيضا منطقة خوارزم غرب بحيرة أورال، وكذلك تقدم في مناطق أفغانستان الحالية، مجتازًا الحدود بين روسيا والصين[57].

ولن نطيل في الحديث عن إنجازات هذا القائد وإدارة المعارك، حيث أولى مبادئ الحرب أهمية خاصة في جميع معاركه خلال أكثر من عشرة أعوام في قيادة الجيوش في خراسان وما وراء النهر. ففي مجال الأمن كان لا يتحرك إلا من قاعدة أمنية، ولا يغامر بأرواح جنده، وكان متحوطًا يوصي بالكتمان، واستخدم التقدم الليلي لكي يخفي تحركاته عن العدو. ولم يبعثر قواه، بل كان يخرج كتائبه ويزجها بكل قواه في المكان والاتجاه الحاسم. وقد اتسمت جميع معاركه بالتعرض، فلم يتوقف عن الهجوم طيلة فترة قيادته، كما لم يتخذ موقف الدفاع أبدًا. وقد طبق مبدأ المباغتة باستمرار، وكانت حركاته سريعة بشكل مذهل، واستخدم الصنوف

الهندسية لتسهيل حركته بنصب الجسور، وتمهيد الطرق وإزالة العوائق، أو الخيالة. وكان مثالاً للتعاون مع قائده الأعلى الحجاج، ومع أركان حربه من قادة التشكيلات التابعة له[58].

وكان هذا القائد إداريًا ممتازًا، هيأ لجيشه كل مستلزمات النصر، لاسيما دراسة المشاكل قبل المعارك، ووضع الخطط في مراحل سابقة، وتكديس التجهيزات العسكرية والأسلحة. وقد منع اعتبار الأسلحة من جملة الغنائم، حتى يستفيد منها لتشكيل قطعات جديدة، ولم يفعل ذلك أي قائد عربي آخر. وقد استخدم الضبط العسكري الصارم مع قطعاته، ومع سكان المناطق المفتوحة ليضمن السيطرة الفعلية عليها، كما حاول أن يعمل على استقرار القبائل العربية في المناطق المفتوحة، لكي تستقر الحاميات، ولا تنسحب فقي كل شتاء إلى مرو. وقد أدى هذا الأمر إلى سرعة وسهولة نشر اللغة العربية والدين الإسلامي بين السكان المحليين. وقد نظم قتيبة البريد بشكل ممتاز مع القائد العام، بحيث كانت الأخبار تصل إلى العراق، وتعود منها خلال أسبوع واحد[59].

الحـــواشـــي:

1. صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي ج1 و2 من المجلد 32، بغداد، 198، ص26.

2. ينظر: خالد الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة، 1984، ص27.

3. صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الهجري، ط2، بيروت0، دار الطليعة، 1969، ص53.

4. ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غوية، ليدن، 1879-1903: 1/ 2405، وينظر لويس ماسينيون، خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصبعي، النجف الأشرف، مطبعة الغربي المدينة، 1979، ص 60-61.

5. ينظر: الطبري، المصدر السابق، 2496/1، 866/2، 870، 902، 1469، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فـــي البصرة، ص114-118.

6. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة أهلورت، غريفز ولد، 1883: 281/11.

7. أبو محمد أحمد بن عثمان الكوفي المعروف بابن أعثم، الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، م4، ج7، ص13، وينظر: عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، 1985، ص66.

8.الطبرس: المصدر السابق: 869/2-870، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الأوائل، تحقيق، محمد السيد الوكيل، طنجة، 1966، ص263.

9.البلاذري: المصدر السابق: 385/11، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد الدين عبد الحميد، القاهرة، 1938: 71/3-72.

10.البلاذري، المصدر السابق: 280/11، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1956: 366/3.

11.البعث: هو أن تطلب الدولة من السكان تقديم المقاتلة للمشاركة في الحروب، فتضرب البعث عليهم، وعليهم دعوة الدولة. ينظر: صالح أحمد العلي، "العطاء في الحجاز، تطور تنظيمه في العهود الإسلامية الأولى"، مجلة المجمع العلمي العراقي، م20، 1970، ص75.

12.المرجع السابق، ص76، وينظر: طه، المرجع السابق، ص70.

13.البلاذري، المصدر السابق: 170/11، المبرد، المصدر السابق: 379/4-80.

14.البلاذري، المصدر السابق: 276/11، الطبري، المصدر السابق:2/.873

15.المبرد، المصدر السابق: 329/3.

16.ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، مكتبة الحياة، 1967: 162/1-163.

17.طه، المرجع السابق، ص 138.

18.أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1925-1930: 274/1.

19.المبرد، المصدر السابق، 87/2.

20.أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الإكليل، تحقيق، محب الدين الخطيب، القاهرة، 1368: 152/10.

21.العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص166.

22.أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، تهذيب تاريخ ابن عساكر، عبد القادر أفندي بدران، دمشق، مطبعة روضة الشام 1329-1332هـ: 149/7.

23.إن المعلومات المتوفرة عن هذا المنصب قليلة. وهناك ما يرى أنه أقل أهمية من العريف. وفي كتاب الأوائل للعسكري، ص 243، إن المناكب فوق العرفاء، وذلك استنادًا إلى قول زياد بن أبي سفيان: "العرفاء كالأيدي والمناكب فوقها". ومما يؤيد أن وظيفة المنكب أشمل من العريف، تعيين الشعبي عريفًا على الشعبيين، ومنكبًا على جميع همدان: تهذيب ابن عساكر: 139/7، وقد ورد عن أبي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق، أحمد عبيد، ط5، بيروت، 1967و ص45، ما يدل على أن المناكب كانوا مسؤولين مع العرفاء، عن توزيع ما يقسمه الخليفة على الأمصار، وينظر إلى العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص118-119، طه، المرجع السابق، ص127.

24.تهذيب ابن عساكر: 149/7.

25.الطبري، المصدر السابق: 948/2.

26.البلاذري، المصدر السابق: 320/11، الطبري، المصدر السابق: 1043/2-1044، وينظر: الجناب، المرجع السابق، ص68، طه، المرجع السابق، ص78-79.

27.أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق، حسن السند وبي، القاهرة، 1947-1978: 141/2

28.الهمذاني، الإكليل: 73/10-74، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة محمد الساسة المغربي، القاهرة، 1323هـ: 41/13.

29.أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق، أحمد زكي، القاهرة، الدار القومية، 1969، ص18-19.

30.الأصفهاني، الأغاني: 36/9.

31.ينظر: تهذيب ابن عساكر: 85/4، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص152.

32.البلاذري، المصدر السابق: 273/11، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص154- 155.

33.المرجع نفسه، ص155.

34.في أنساب الشراف: 273/11 (طبعة أهلورت).

35.ابـــن قتيبة، عيون الأخبار: 211/2، وينظر: العلي، التنظيمات، ص160.

36.ينظر: الطبري، المصدر السابق: 1062/2، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 19665-1967: 465/4.

37.تاريخ الرسل والملوك: 1134/2-1135.

38.ينظر: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص96.

39.ينظر مثلا: الجنابي، المرجع السابق، الفصل الرابع (الصنوف والسلحة)، ص113-159.

40.ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 533/2.

41.ابن أعثم، المصدر السابق: 163/7.

42.ينظر: الجنابي، المرجع السابق، الفصل الخامس/ التعبئة وأساليب القتال، ص163- 204.

43.الطبري، المصدر السابق: 585/2، نافع توفيق العبود، آل الملهب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، بغداد، 1979و ص40.

44.ينظر: ابن الأعثم، المصدر السابق: 179/7- 180.

45.ينظر الطبري، المصدر السابق: 1199/2، 1201 فما بعدها.

46.الطبري، المصدر السابق: 1125/2.

47.الجاحظ، البيان والتبيين: 270/1، 318/3، ياقوت، معجم البلدان: 350/5.

48-Munir. W. Annals of the Early Caliphate

وينظر إلى: Amsterdam، 1968، p 339.

49.ناجي الأصيل، "واسط الحجاج"، مجلة سومر، العدد1، المجلد2، 1945، ص11.

50-The Arab Conquests in Central Asia، London، 1923، p29.

أحمد بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، مصر، مطبعة السعادة، 1959، ص424

51.المصدر نفسه، ص424، الطبري، المصدر السابق: 1199/2.

52.ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، نشر، دي غوية، ليدن، 1885، ص162.

53.الطبري، المصدر السابق: 875/2، 1006 فما بعدها.

54.المصدر نفسه، 591/2.

55.أبو العباس أحمد بن خلكان ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968: 352/5، العبود، المرجع السابق، ص43.

56.البلاذري، فتوح البلدان، ص425.

57.ينظر: صلاح مهدي عماش، قتيبة بن مسلم الباهلي، بغداد، 1978، ص12.

58.المرجع نفسه، ص175–178.

59.المرجع نفسه، 179–181، وينظر أيضا: عبد الواحد ذنون طه، قادة العصر الأموي، منشور في كتاب: الجيش والسلاح، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1988: 330/4–331.

المؤرخ أبو بكر الرازي جغرافيا.

✍ ~~~~~~~~~~~~ د.غازي جاسم الشمري

مما لا شك فيه أنه ليس هناك وطن محدد للعلم، وان تراث الإنسانية الفكري، تراث مشترك، ساهمت فيه شعوب مختلفة بمقادير معنية، كما أن العلماء العرب، كغيرهم من العلماء استفادوا من الذين سبقوهم، وخاصة الإغريق والرومان والهنود والفرس والصينيين، بالإضافة إلى معرفتهم بالتراث الفكري الذي خلفه السومريون والبابليون والكلدان والصائبة وغيرهم، فترجموا عن لغات الآخرين، وأضافوا أمور جديدة، وابتكروا قضايا عديدة، وأفادوا من لحق بهم بإنجازاتهم المتعددة.